عبدالنبي اصطيف

الحاضر في آداب العالم

أبوليوس الجزائري..

صاحب رواية «الحمار الذهبي»

ثمة ما يشبه الإجماع على أن أول رواية حققت الشروط الأساسية لهذا الجنس الأدبي، من حبكة، وشخصيات، وعلاقات، وتحفيز، وحوار، وغيرها من متطلبات العمل الروائي.. هي رواية (التحولات)، أو ما غلب عليها عنوان (الحمار الذهبي) للوكيوس أبوليوس، الفيلسوف، والبلاغي الأمازيغي، المولود في مادوروش في الجزائر، وأحد أبرز أعلام الأدب المكتوب باللاتينية في القرن الثاني الميلادي.

ولا تكمن أهمية هذه الرواية في قيمتها التاريخية فقط، ولا بما تنطوي عليه من معلومات سيرية تتصل بمؤلفها، وبطبيعة الحياة التي عاشها بطل الرواية في اليونان، التي شكلت فسحة الرواية وحسب؛ وإنما بما تمتلكه من سحر وإثارة، وجمع بين المأساوي والكوميدي، بين الجد والهزل، بين الأدب والفلسفة كذلك، ما جعلها محط اهتمام جمهور واسع ومتنوع من القرّاء، عبر ما يقرب من ألفي عام، لم يفتر فيها اهتمام الناس بها في مختلف بلدان أوروبا، وبلدان حوض المتوسط، وبخاصة بعد ترجمتها، ودراستها، واستلهامها في العديد من الآداب والفنون الغربية، وغدوّها في نهاية المطاف أيقونة لمقولة التحولات، أو مسخ الكائنات التي خلبت عقول الناس وأفئدتهم عبر القرون، فضلاً عن احتوائها لقصة (أمور وبسيشة)، أو (كيوبيد وبسيشة)، التي ألهمت الأدباء والفنانين التشكيليين، وكتاب المسرح منذ العصر القديم وحتى يومنا هذا في بلدان الشرق والغرب.

ولكن ماذا عن مؤلف هذه الرائعة العالمية (لوكيوس أبوليوس)، أو (فولاي)؟ إن لوكيوس أبوليوس، أو فولاي، الفيلسوف الأفلاطوني، والأديب اللاتيني، أو الروماني، كاتب لاتيني اللغة والثقافة، مُتحدِّر من أصول أمازيغية، ولد في الجزائر في مادوروش، سوق أهراس حالياً، عام (١٢٤م)، وتوفي، على الأرجح فيها، بعد عام (١٧٠م). ولا ريب أن وجوه هويته المتعددة تطرح على دارسيه مجموعة من الأسئلة، التي لا بد من الإجابة عنها قبل المضي في تدبُّر نتاجه.

هل ما أنتجه لوكيوس أبوليوس من مؤلفات فلسفية وأدبية، دوّنها باللغة اللاتينية؟ اللغة المشتركة لعصره الذي تحوّل فيه البحر المتوسط إلى بحيرة رومانية، يمكن أن يُعَدّ جزءاً من الأدب العربي، أو على الأقل من أدب الجزائر الحديثة مادام قد ولد فيها ونشأ ونال نصيبه الأول من التعليم فيها عندما درس في جامعتها، التي تعد أقدم جامعة في إفريقية، خاصة وأن أدب الجزائر يشمل أعمالاً باللغات العربية، والفرنسية، والأمازيغية، والإسبانية. وعندها يطرح سؤال آخر نفسه، وبإلحاح، وهو: ما المُحدِّد الأهم لهوية الأدب، أي أدب؟ هل هو اللغة التي أُنتِج بها، والتي أعلى من شأنها المنظِّرون الأوروبيون لفكرة القومية في القرن التاسع عشر؟ وعندها يُعرَف الأدب بلغته التي

> **لا تكمن أهمية الرواية في قيمتها التاريخية وحسب بل بما تملكه من سحر وإثارة تجمع بين المأساوي والفكاهي**

دُوِّن بهـا، بصرف النظر عن مـكان إنتاجه، أو هوية منتجه العرقيـة أو الإثنية. هل هو العامل الجغرافـي، بما يتركه من أثر في النتاج الأدبي وفي صاحبه؟ وعندها يُنسب الأدب إلى الفسحة الجغرافيـة لمنتِـج النص الأدبي، مـع العلم أن حدود هذه الفسحة قد تختلف بين عصر وآخر، وتتسـع مسـاحتها وتتقلص بمدى انتشار نفوذ الإمبراطوريـة، التـي تحكمها وتحـدد مصائر ساكنيها. هل هو العامل العرقي أو الإثني الذي يمنح النتاج هويته؟ وعنها يُنسب الأدب إلى عرق مُنتجِه، أو إثنيته، أو لونه. ثم ماذا عن صلة هذا النتاج بمتن آداب العالَم الأخرى، التي تشـترك معـه باللغـة أو الجغرافيا أو العـرق أو الإثنية؟ وهل ثمة من أهمية لهذا الإنتاج تتعدى الأهمية التاريخية، وبخاصة عندمـا يُتَرجم هذا الإنتاج إلى العديد من اللغات الحية، وينتشر على نحو واسع في جنبات الأرض، متجاوزاً بذلك الحدود الجغرافيـة واللغوية والعرقية لفسـحة مولده؟ هـذه بعض الأسـئلة التـي تتداعـى إلى ذهن المرء، وتلح عليـه للبحث عن أجوبة لها، عندما يواجه إنتـاج لوكيوس أبوليوس المادوروشـي/ الجزائري، صاحب رواية (التحولات، أو الحمار الذهبـي)، أول روايـة مكتملـة العناصـر في التاريـخ الأدبي العالمي، خاصـة وأن الجزائر، موطنه الأصلي، باتت تُعنى به وبنتاجه؛ فتصدر مجلة تحمل اسـمه هي (مجلـة أبوليوس: مجلة الآداب واللغـات)، التي تصـدر عن كلية الآداب في جامعة محمد الشـريف مساعدية، في سوق أهراس، وتُترجم أعماله. وينشـر باحثوها، من أمثـال: (رمضان تسـعديت، وكاهينـة قبايلي، وحوريـة كوريـدات، وسـعاد حـلاق، وسـعاد سـليماني، ومريـم عبدالسـلام، وعبدالوهاب شـعلان).. وغيرهـم، الدراسـات والبحـوث المحكمة في مختلف المجلات العلمية، وينشـئ طلابها الرسـائل الجامعية التـي تتفحص هذا الإنتـاج، وتنظِّم مؤسسـاتها الجامعية والبحثية الملتقيـات الدولية عن حياتـه ومؤلفاته (عُقِد الملتقـى الدولـي حـول أبوليوس المـادوري: رؤى متقاطعـة حول أبوليـوس) بين (٣٠ مايو/ أيار) و(١ يونيو/حزيران) عام (٢٠١٥م)، بسوق أهـراس برعاية من جانب المحافظة السـامية الأمازيغيـة في الجزائر)، بغـرض تعزيز هويته الجزائرية، وتشجيع المهتمين بدراسته وترجمة سائر مؤلفاته إلى اللغة العربية.

غيـر أن ثمة أمـراً يكاد يغيـب عن أذهان الأشـقاء الجزائرييـن، وغيرهـم من دارسـي (أبوليوس) من الباحثين العرب في ليبيا وتونس (الذيـن قاموا بترجمة روايـة الحمار الذهبي، واختلفوا، بل تنازعـوا فيما بينهم، على انتمائها القطري مع الجزائر بلد ولادة أبوليوس ووفاته، وسعوا إلى نسـبتها: كل إلى أحد هذه الأقطار)، وهو صلة هذه الرواية الرائدة بالأدب العالمي، وموقعها فـي دائرة هذا الأدب، وعلاقاتها التي أنشـأتها بمختلف آداب العالم، منذ إنشائها في القرن الثاني الميلادي وحتى يومنا هذا. وربما كان مـن المفارقة حقاً، أن ما غاب عن أذهان باحثي شمالي إفريقيا، قد ظفر باهتمام منقطع النظير في العقود الأخيرة في الغرب، تجلى في عدد كبير من الدراسـات والكتب والمؤتمرات، التي لم تكتفِ بدراسـة تلقي هـذه الرواية في مختلـف الآداب الأوروبية، بل سـعت إلى بيان صلتها بعالَم اليوم الذي تسوده العولمة بمختلف صورها، وتوضيح أهميتها بما تطرحه من مسائل العلاقة بين الأدب والفلسـفة والدين والسـحر والبيئـة، فضلاً عـن العلاقات الإنسـانية بين مختلف شرائح المجتمعات الإنسانية المعاصرة.

ومما يعمق هـذه المفارقة بحق، هو غياب دراسـة تلقي هذه الرواية فـي الثقافة العربية الحديثة: بالوقوف على ترجماتها (ولدينا ثلاث ترجمـات لها، لكل من: علي فهم خشـيم، عن الإنجليزيـة، وأبوالعيـد دودو عـن الفرنسـية، وعمـار الجلاّصي عن اللاتينية)، والدراسـات والرسـائل التـي عنيـت بهـا، والاسـتلهامات الإبداعيـة لها أو لمُكوِّن مـن مُكوِّناتها، والتي تعـد روايـة نبيل سـليمان (تحولات الإنسـان الذهبي) (عمـان- ٢٠٢٢م) مـن أبرزها. ولعل انشـغال مواطني الوطن العربي المعاصر بما يهدد وجودهم هذه الأيام، هو سبب انصرافهم عـن خدمة هـذه الرائعـة العالميـة، ودورهم الرائد في وجودها.

هناك إجماع على أنها أول رواية حققت الشروط الفنية لجنس الرواية

أهمية الإبداع أياً كانت هويته أن يترجم إلى اللغات الحية وينشر في العالم

الكاتب الذي ولد وعاش في الجزائر لاتيني اللغة والثقافة ومتعدد الهوية